في حي "القصبة"

قصة

بقلم حنفي بن عيسى

الى تلك التي وقفت الى جانب الرجل لتدافع عن حياض الوطن ، الى جميلة وامثال جميلة بوحيرد من النساء العربيات ، اهدي هذه القصة.

*

لا ادري كم مر من الوقت منذ ان جلست امام نافذة بيتنا في حي القصبة بمدينة الجزائر . انني احدق في الناس وراء الزجاج ، واطيل فيهم التحديق ، وابصرهم يمرون في شيء من العجلة والاضطراب فمنهم العمال في ثيابهم الرثة البالية ، ومنهم الطلاب ، ومنهم النساء ، وقد لبسن لحافا ابيض يسترهن عن اعين الناظرين ، ومنهم ماسحو الاحذية الذين يرددون الاناشيد الوطنية التي تعلموها في حياتهم المضطربة المليئة بالبؤس والشقاء .

ان حقيقة بلادي تبدو في هذا الزقاق الضيق من حي القصبة ، والواقع المرير الذي يعانيه وطني يتجلى في هذه البيوت التي لا ينفذ اليها النور، وفي هذه المخلوقات التي تتردد على هذه البيوت كل مساء ، وتخرج منها في الصباح ، وبالرغم من ان بلادي مشهورة بشمسها الساطعة ، وسمائها الصافية الاديم ، فلم تعد كذلك منذ عدة اشهر .

كان وطني حلم السواح الاجانب الذين يبحثون عن الجمال والهدوء والسكينة ولكن البارود ورائحة الحريق قد انتشرت اليوم في كل مكان . ستطيع السواح الاجانب اذا اتيح لهم ان يزوروا وطني في هذه الظروف،ان يتحدثوا عن الجثث التي تتساقط في شوارع المدن من غير ان تجد من يدفنها . يستطيعون ان يسمعوا دمدمة المدفع الرشاش ، وفرقعة القنبلة اليدوية ، وازيز الطائرة التي تبحث عن المجاهدين في كل مكان من غير ان تعثر لهم على اثر . ويستطيعون ان يشاهدوا هجوم المظلمين على حينا ، حي القصبة ، بامر الجنرال ماسو .

ورغم هذه الظروف ، فينبغي لي ان افكر في امر مستقبلي كسائر اللواتي بلغن سن العشرين فتفتحت عيونهن ذات يوم على عالم مليء بالعنف والقسوة . ان علي ان اقرر مستقبلي ، وانا اشعر تمام الشعور ان البقاء على مثل هذه الحالة لا يطاق . كيف يمكن لي ان اتقدم الى فحص الجامعة في هذه الظروف المضطربة ؟ كيف يمكن التفكير في مواصلة الدراسة ؟ وانا لا امن على نفسي ان يعتدي علي المظليون في طريقي الى الجامعة ؟ كيف يلذ لي ان اجلس على كرسي الدراسة ، وانا اعلم ان بعض زميلاتي ، ولا اتحدث عن الزملاء ، قد هجرن مقاعد الدراسة ، والتحقن بجيش التحرير ؟

لا . بكل تاكيد ، لا اعتقد انني ساتقدم الى الفحوص ، ولا يهمني ان انجح في هذا العام او في العام المقبل اولا انجح ابدا .

ذاك الصباح ، كانت الشمس ترسل اشعتها الذهبية خلال اشجار التوت التي تملأ حديقة الجامعة . وكانت الاشعة تنفذ الى النفوس رقيقة لذيذة ، وكانت تداعب الوجوه في نعومة ، وكانت رائحة الارض المبتلة بالندى تختلط ذاك الصباح برائحة الياسمين التي تنتشر من الحديقة ، وكنا هناك على احد الكراسي الخشبية نعلق على اخر الاخبار .

قالت لطيفة : لقد اقترب اليوم الذي كنا نخشاه .

فاستفسرت زكية : هل تقصدين الفحوص ؟

ـ نعم ، ويشاع انها السنة ستكون في منتهى الصعوبة .

واردت ان اغير مجرى الحديث ، لانني على اي حال ، لم اكن انوي ان اشارك في الامتحانات ، ولا يهمني ان يقترب موعدها اولا يقترب :

ـ بالمناسبة يا آنسة جميلة . لماذا يتخلف اخوك عن الحضور في هذه الايام الاخيرة ؟ هل هو مريض ؟

فبادرت زكية الى معاكستي كما تعودت دائما ان تفعل :

ـ انها تسأل عن مخلوف . هي دائما تسأل عن سي مخلوف : كيف حال سي مخلوف يا جميلة ؟ لماذا يتغيب سي مخلوف ؟ هل سي مخلوف مريض ؟ قضيتك معه واضحة .

ورن ضحك الفتيات ، عاليا ، صافي النبرة ، وتبادلن النظرات. اما انا فقد بقيت في وسطهن ، واجمة ، محمرة الوجه ، لا ادري ماذا اجيب .

وانقذتني جميلة من موقفي الحرج عندما قالت :

ـ فيما يتصل بالامتحانات ، لا اعتقد اننا سنشارك فيها . فقد قرر الاتحاد العام للطلبة الجزائريين الاضراب عن الدراسة الى اجل غير مسمى .

واخرجت من محفظتها التي كانت ثقيلة ذاك الصباح اكثر من المعتاد ، كومة من المناشير ، ووزعتها علينا وقرأنا بيان الاتحاد العام ، وسرى الحماس بيننا ، وفي مدى ربع ساعة وصل الخبر الى كل مكان . وكانت المناشير تتناقلها ايدي زميلاتنا الفرنسيات في شيء من الدهشة والاستغراب وغير قليل من الوجوم . اما نحن فقد كنا ندخل غرف الادارة ، وقاعات المحاضرات ، وكنا نلصق البيان على الجدران .

ورن الجرس مؤذنا ببداية الدرس . وتزاحم الطلبة الفرنسيون على القاعات . اما نحن فقد سلكنا طريقا اخر ، فخرجنا في مظاهرة عبر الشوارع ، نعبر ذاك الصباح عن مشاعرنا بالهتافات والاناشيد .

***

ـ لا شك ان هناك طريقة .

هكذا قالت جميلة ، ثم سكتت لحظة ، واجالت نظرها في الوجوه الفتية التي التفت حولها . كانت تتكلم في مركز جمعية العلماء ، حيث اعتادت خليتنا السرية ان تجتمع . وكان المركز بحي القصبة ، وكانت بيوت القصبة تشكل مخابيء للارهابيين الذين ينشرون الرعب والفزع في قلوب المستعمرين . ان المظليين يخافون من القصبة . الجنرال ماسو يخاف من القصبة : كل الفرنسيين يخافون من القصبة . ان ازقتها مليئة بخلايا الارهابيين السرية . وكانت جميلة على رأس خليتنا .

ـ لا شك ان هناك طريقة لمعالجة هذه الحالة . كل واحدة منكن تعرف جيدا ان معظم الشبان قد التحقوا بجيش التحرير في الجبال ، واما الذين

لا يزالون في العاصمة فهم مراقبون مراقبة شديدة ، ولا يستطيعون ان يحملوا السلاح لانهم معرضون في كل حين للتفتيش.

وتوقفت قليلا لترى اثر كلماتها في الوجوه ، ثم استأنفت كلامها .

ـ منذ اليوم ، سنقوم بدور الشبان في العاصمة ، سنحمل القنابل اليدوية تحت لحافنا الابيض ، سنخرج الاسلحة المدمرة من حي القصبة الى الحي الاوروبي لينشر شبابنا هناك الرعب والفزع .

ووزعت علينا مهماتنا ، وكان علي ان انقل عدة قنابل يدوية من القصبة وان اعطيها لمخلوف ، وان اساعده في مهاجمة احد مراكز البوليس .

اذن سألبس اللحاف الابيض الخاص بنا بنساء العاصمة ، وساضع فوق وجهي برقعا ، ولن يبدو من وجهي سوى الجبين والعينين ، لم اتعود اذن سألبس اللحاف الابيض الخاص بنساء العاصمة ، وساضع مني اليوم ان ارتدي هذا اللحاف الذي يوحي بالطهر والبراءة . وعليبعد ذلك ان اتكلف الرزانة والوقار ، وان اكون هادئة الى اقصى الحدود ، علي ان امر امام المظليين في مدخل الحي العربي وان لا اظهر اثرا للخوف والارتباك .

سأحس بالقنابل اليدوية ثقيلة ، وسأشعر بعيون الجنود تحاول في اصرار وعناد ان تستشف ما وراء اللحاف . سأحس بالعيون الزرقاء المليئة بالقسوة والمكر تنفذ الى اعماقي لتطلع على السر الرهيب ، وعند ذلك ساشعر بمغص في معدتي ، وسيتصبب عرقي ، وتدور الدنيا امام عيني ، وفي ذلك الحين ساعرف الخوف الاكبر الذي لم اعرفه خلال حياتي الهادئة .

ومع ذلك فانا واثقة ان مخلوف سيشرف على العملية بحكمة وبراعة وما علي الا ان اتبع تعليماته . لاشك انه يعرف معنى الخوف . ساطلب منه ان يشرح لي ذلك . انه ارهابي . اخته جميلة ارهابية . زكية التي يلذ لها بين الحين والاخر ان تشير الى علاقتي مع مخلوف هي ايضا ارهابية . انا لست ارهابية . لم اصر بعد ارهابية ، ينبغي ان امر باللحظة الحاسمة ، وان احس بالمغص في معدتي حتى اكون ارهابية .

✱■✱

مررت امام المظليين في مدخل الحي العربي ، ولكن لم تخفني عيونهم الزرقاء المليئة بالقسوة . وكان مخلوف يسير على بعد خطوات ، فلما بلغ الحي العربي امره المظليون ان يرفع يديه وان يستدير مواجها الجدار . ثم رايتهم يفتشونه ، ثم طلبوا منه الهوية وسجلوا اسمه . وبعد قليل رايته يضع اوراقه الثبوتية ، ويصلح هندامه ، ويسير هادئا مطمئن البال.

ثم جاءت اللحظة الحاسمة ، ووجدت نفسي امام المظليين ، ورأيت رشاشاتهم الصغيرة المعلقة على اكتافهم العريضة ، ولمحت الوحشية والقسوة تلمع في عيونهم الزرقاء . ثم اتجه بصري الى مخلوف ،ولم اعد ارى المظليين والرشاشات المعلقة على اكتافهم ، ووجوههم القذرة . كانت عيناي معلقتين بمخلوف ، وكنت احس ان جميع كياني يتجه اليه في شوق وحرارة . وانتظرت الكلمة الرهيبة التي تأمرني بالوقوف ورفع اليدين ، ومواجهة الجدار ، ولكن الكلمة الرهيبة لم تأت ومررت بسلام .

✱■✱

ذاك المساء ، كانت الشمس ترسل اشعتها الاخيرة ، فتتسلل عبر الشوارع الضيقة وتحاول عبثا ان تبعث شيئا من الفرح والسرور في النفوس ،ولكنها لا تستطيع ان تعيد لهذه المدينة نشاطها القديم . فقد اغلقت ابواب الدكاكين ، وظللت السابلة في الشوارع ، ولجأ الناس في حزن دفين ، والم كبير الى بيوتهم . ولحقت بمخلوف ، وكان ينتظرني في منعطف الشارع .

كنت التقي بمخلوف في الكلية مع اخته جميلة . وكان يحييني تحية سريعة ، وكنت ارد عليه بابتسامة احاول ان احلمها من المعاني ، وانا اعترف بذلك ، اكثر مما تطيق . ولكن الامر لم يتجاوز في يوم من الايام التحية السريعة من جانبه ، والابتسامة المشجعة من جانبي . وها انا اليوم اسير معه في شوارع المدينة واحس ان مهمة واحدة قد جمعتنا ،واشعر بقوة ، ان مصيرا واحدا ينتظرك هناك ، في منعطف الشارع حيث يقع مركز البوليس . وسرنا خطوات لم نتحدث خلالها ، ثم سألته :

ـ قل لي يا مخلوف ، هل شعرت في يوم من الايام بالخوف ؟

ـ من الطبيعي ان اخاف . كل الناس يخافون في بعض الاحيان .

ـ ولكنك ارهابي .

ـ الارهابي انسان قبل كل شيء يا زهور .

ـ هل ينجح الارهابي في مهمته اذا خاف ؟

ـ لا يشعر الارهابي بالخوف عندما يؤدي مهمته . انه يمسك القنبلة اليدوية بيد قوية ، ثم ينزع الحلقة ، ويرمي القنبلة وهذا كل ما في الامر . ليس لديه الوقت الكافي حتى يشعر بالخوف ، لان تفاصيل الخطة تكون قد استولت على جميع تفكيره .

ـ ولكن كيف لا تشعر بالخوف وانت مقبل على الموت ؟

ـ عندما انتهي من المهمة ، وارجع الى البيت ، واستلقي على فراشي عندما اشاهد لهفة والدي واشفاقهما علي ، عند ذلك فقط احس بمغص في معدتي يستولي على جميع كياني ، واتصور انني اشرفت على الموت . عند ذلك اشعر بالخوف .

وكنا آنذاك قد اقتربنا من مركز البوليس .

ـ افتحي العلبة يا زهور . ناوليني قنبلة . اختبئي هنا ، وراء الجدار.

وبعد دقيقة واحدة ، دوى انفجار رهيب هز اركان المدينة ، وسمعت زجاج المدينة يتساقط هنا وهناك .

ـ ناوليني القنبلة الثانية .

كان ينوي ان يرمي القنبلة على نفس المركز ، ولكنه ابصر دورية افرنسية مقبلة من شارع مجاور .

واندفع نحوها حتى صار بالقرب منها ، ورمى القنبلة . وسمعت دويا قويا اعقبته طلقات مدفع رشاش ، وخلال الطلقات التي لم تنقطع سمعت صوتا قويا يصرخ بافتخار وتحد :

ـ تسقط فرنسا المجرمة . تحيا الجزائر !

اما انا فقد كنت اعدو بكل قواي ، متعثرة في اللحاف الابيض الطويل . وابصرت امامي دورية ثانية ، وسمعت ورائي احذية الجنود تدك الرصيف بقوة ، وشعرت بانفاسهم المحرقة على ظهري . ثم رأيت اللحاف الابيض قد احمر في منطقة الكتف ، ومرت غمامة سوداء امام عيني ، ولكني لا ازال اعدو بكل قواي . وفجأة سمعت صوت مخلوف يرن في الفضاء واضحا صافي النبرة ، وتبينته خلال الضجيج . وخيل الي ان الصوت ياتيني من كل مكان : من السماء ، من الارض ، من الامام ، ومن الخلف . انه صوت مكبر ملايين المرات . واغلقت اذني حتى لا اسمعه ، ولكن الصوت ارتفع وراء السياج الذي وضعته ، داخل راسي ، وانفجر هتافا طويلا قويا :

ـ تسقط فرنسا المجرمة . تحيا الجزائر !

ثم لم اعد اذكر شيئا .

حنفي بن عيسى